

## جغرافية الأسرار

هنا في برلين استلقي في الفراش ليلاً لأنام ولكن النوم لم يعد يأت بسهولة فقد أصبحت الأخبار الواردة من حلب مدمرة للأعصاب. فالحرب مستمرة هناك ومن بعيد تبدو الحرب الأهلية أكثر قسوة وأكثر تدميراً. أتقلب في الفراش وقد تعبت من مطاردة النوم وحيداً، فقد فارقتي زوجتي هدى قبل ست سنين والقلق على ابنتي وابني يتعاظم كل يوم. تحضرني تосلات ابنتي لي بأن أخرج من البلد والتجئ إلى أي مكان مهما كان فهم يغتالون النخبة لإلقاء اللوم على المعارضة. منذ أن خرجت من المدينة أصبح عنف النظام أكثر شراسة ولم تسلم مدينة في سوريا من آلة التدمير أما الآن فالحرب تجري في أقدم مدن التاريخ وأكثرها غموضاً.

أصيب مدخل قلعة المدينة بقذيفة هدمت جزءاً من جدار المدخل. هذه القلعة التي تتوسط المدينة التي نمت وكبرت من حولها. إنها المكان الذي تجتمع فيه أسرار التاريخ. كنا صغاراً حين كنا نسلق الهضبة التي تربع القلعة فوقها مشرفة على المدينة كصغر يحميها من فئران الظلام. حينها كنا نود أن نكتشف بعضاً من أسرار القلعة. سمعنا الكبار يقولون إن هناك سرداياً عميقاً يصل القلعة بخارج المدينة، كانوا يستخدمونه لتزويد القلعة التي يحاصرها الغرباء بالمواد الغذائية الضرورية لاستمرار مقاومة الجنود المدافعين عنها. كان السكان ينتقلون إلى القلعة حين يداهمهم الأعداء فتغلق أبوابها ويستعد الرجال للدفاع عنها. كان هذا السرداد ضرورياً أثناء الحرب وكذلك أثناء السلم ليهرب منه الملك حين يثور عليه الشعب للتخلص منه، كذلك كان طريقاً يسلكه العشاق للدخول والخروج بشكل خفي. لم نكتشفه ولكن الجميع يعلم أنه موجود.

ثم إنني أذكر يوماً حين كانوا يهدمون منزلاً عتيقاً لاقامة مبني حديث. كانوا يحفرون الأساسات حين انكشف سرداد معتم. كان هذا جزءاً من قناة حلب التي تتشعب تحت بيوت المدينة كمترو الأنفاق الآن في بعض المدن. كان السقف القنطري مبني بالحجارة بينما المياه تسيل من منبعها لتنتشر في جميع أرجاء المدينة القديمة. كانت تلك اللحظة مهمة في حياتي كصبي فنزلت أنا ورفافي لتنقرج. كان عالماً سحرياً ومخيفاً في آن

معاً. غصنا في المياه التي كانت تأتي من قرية "حيلان" شمال المدينة بينما حفر في كل بيت بئر يصل إلى القناة في الأسفل.

سجلت في أحد أعمال الروائية كيف ان الرجال كانوا يختبئون في البيوت هرباً من فسائل التجنيد العثمانية التي كانت تبحث عن الشبان وتنقطعهم لسوقهم الى الحرب العالمية الأولى. حين كان الشبان يشعرون بخطر مداهمة هذه الفسائل لبيوتهم بحثا عنهم كانوا ينزلون الى البئر ليختبئوا في القناة بينما الجيران يذلون لهم الأطعمة بالحبال الى أسفل بيوتهم. استخدم هذه الطريقة أيضاً اللصوص والعشاق. كانوا يتسللون من الآبار ليلاً ليقضوا حاجتهم ثم ليهربوا بنفس الطريقة الى عالم متشعب يقودهم الى أي مكان يريدون.

طرقات المدينة القديمة متشعبة بشكل غير منظم والكثير منها لايزيد عرضه عن المتر والنصف أما أسطح البيوت فهي متلاصقة ومستوية ويسهل السير عليها والانتقال من سطح بيت الى سطح بيت آخر، وهذا مناسب جداً للصوص والهاربين من الشرطة أو من الآباء أو الأزواج الغيورين. انا نفسي كنت أجول مابين هذه الأسطح لا شيء الا لمنتعة مشاهدة بيوت الآخرين من الأعلى. كنت صبياً وقبل أن أبلغ سن المراهقة حين لفت انتباهي احد البيوت حيث كانت صاحبته الجميلة والصبية تستلقي في فراش ممدود في باحة المنزل الى جانب البحرة ذات النافورة، دائماً كانت بثياب النوم الملونة والشفافة، ودائماً كانت تتقلب في هذا الفراش منتظرة أحدٍ ما لم يصدق ان شاهدته يدخل أبداً.. هل فرغ هذا العالم ياترى من الرجال؟

سمعت مؤخراً أن المعارك بين جنود الحكومة والمعارضة تجري في المدينة القديمة مما أدى الى تدمير عدد من البيوت هناك ، هذا الخبر أربعني وجعلني أتذكر زيارتي الأولى الى حي بحسيتا التي هي في قلب المدينة القديمة. حي بحسيتا هو الحي الذي زاره كل شاب مرة على الأقل في حياته للفرجة أو ممارسة الجنس مع احدى ساكنته. انه حي متشعب بطرقات ضيقة وبيوت لا تختلف عن بيوت المدينة التقليدية الأخرى وفي المساء يزدحم بالرؤاد والمترججين وتجلس النساء في باحات البيوت أو في الطرقات بأقل ما يمكن من الثياب ليعرضن أجسادهن بغرض جلب الزبائن. هناك أيضاً من كان يبيع السندينيش والمشروبات المقوية التي كان يحتاجها الرجال بعد انتهاءهم من جولة جنسية

هي على الأغلب سريعة ولكن ممتعة. هناك فقدت براءتي في السادسة عشرة حين أخذني أحد الأصدقاء المجريين إلى امرأة في الأربعين قال عنها إنها تتفهم الشبان البكر وتساعدهم وتصبر عليهم. وفعلاً كان صادقاً فقد كانت متقدمة لوضعي الحرج. أيضاً تدفعني أخبار المعارك في سوق المدينة الأثري واحتراق الكثير من المحال فيه إلى تذكر السوق فنحن في حلب نسمى هذا السوق بـ "المدينة" ونعتبره عصب حياتنا. والمدينة هي شبكة من الطرق الضيقة تتوزع فيها الدكاكين على الجانبين حتى لو كان الطريق بعرض مترين أو أقل. لكل مهنة سوق واكتشاف هذه الأسواق السبعة والثلاثين رحلة جميلة كنت أقوم بها في الأيام التي تسبق الأعياد. إنها طرقات بطول ثمانية كيلومترات وتشغل مساحة سبعة هكتارات مغطاة بسقف مقنطرة تنتهي نوافذ في الأعلى تسقط منها أعمدة أشعة الشمس بشكل بديع، بينما يحتل جزءاً من هذه الأسواق أكثر من عشرين خاناً بتصاميم معمارية أخذة كانت يوماً مراكز تجارية تستقبل القوافل التي ترور وتأتي على طريق الحرير بينما تعتبر اليوم المراكز التجارية والصناعية الأهم للاقتصاد السوري.

اكتشاف هذه الأسواق كان ممتعة أيام الصبا ففي كل خطوة فيها كنت اكتشف سراً جديداً مدهشاً وخاصة "سوق النسوان" المختص بالألبسة النسائية من بدلات العرائس إلى البستهن الداخلية. وعادة ما يكون هذا السوق مزدحماً بالنساء وبزيارة واحدة إلى هذا السوق يمكن للزائر أن يحصل على فكرة رائعة عما ترتديه المرأة لزوجها ليظل يحبها، وفي أحد الفيترينا شاهدت مرة قطعتي ثياب داخلية نسائية تومض إذا مالمسها الزوج. وقد أردت اكتشاف أسرار عوالم هذه الأسواق والخانات في قصة ممتعة فكان مسلسل "خان الحرير" التلفزيوني الذي رصد حركة الأسواق والخانات وسجل مكانتها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في فترة الاضطرابات السياسية في الخمسينيات وحتى بداية السبعينيات. وقد صور المسلسل في الأماكن الحقيقية أي في الأسواق والخانات وطرق وبيوت حلب القديمة التي تحدث الآن فيها معارك حربية تستخدم فيها القوات الحكومية الطائرات الحربية ومدافع المورتر.. يا إلهي!

والأمر لا يتوقف فقط على حجارة هذه المدينة المغفرة في التاريخ بل إن مجتمع المدينة يحتفظ بسراره لنفسه، وقد عجز الرحالة الأجانب في الماضي عن اكتشاف أسرار هذه

المدينة بالشكل الأمثل فما قدموه لقرائهم لا يعود عن صورة للظاهر أما الباطن فقد بقي دون اكتشاف خاصة مجتمع المرأة الحلبية والعلاقات النسائية النسائية، أقصد بالتحديد ظاهرة خفية تسمى "بنات العشرة".

كل حابي يعلم أو سمع يوماً عن بنات العشرة الواسعة الانتشار في المجتمع الحabi، ولكي نفهم سر هذه الظاهرة علينا ان نعلم ان المجتمع الحabi هو مجتمع يفصل بين المرأة والرجل ولكن المرأة طورت علاقتها ببنات جنسها الى حدود المعاشرة العاطفية بسبب حاجتها الى الحنان والى معاشرة اجتماعية يومية. الرجل يمنع زوجته أو بناته من الاتصال بالرجال مهما كانوا بينما لا يعتبر اندماجهن بعلاقات نسائية معيناً ولذلك تطورت هذه الظاهرة الى حدودها القصوى بموافقة الرجل أو على الأقل بصمته. نحن نعلم مكانة الموسيقى في المدينة إذ لا يخلو بيت من آلة العود الموسيقية حتى أن الآباء سمحوا للنساء بتعلم الموسيقى والغناء لأشباع الحاجة الى السمر في البيوت. وقد استفادت النساء من براعتهن الموسيقية هذه في لقاءاتهن اليومية وخاصة بنات العشرة اللواتي اعتدن على اللقاء في يوم محدد من الاسبوع حيث تجلس كل واحدة مع صديقتها التي تسمىها "ابلايتها" متلاصقتين متحففتين من بعض الملابس تغ bian و تغنجان وتوجهان كلمات الأغاني الى بعضهما البعض وتأتيان بحركات راقصة ولا يخلو الأمر من المداعبة والقبلات.

كنت في الماضي قد سمعت كغيري عن هذه الظاهرة وكنا على علم بأشهر بنات العشرة في المدينة وبأخبارهن وبما اني كاتب ملتصق بهذه المدينة الرائعة فقد قررت كتابة رواية عن بنات العشرة اسميتها "حالة شغف". وكعادة كل الكتاب، وبعد أن يقرروا الكتابة عن شيء معين يبدأون رحلة الدراسة والبحث وبدأت انا نفسي هذه الرحلة ولكنني اكتشفت في بداية بحثي ان كل ما كتب في الماضي عن هذه الظاهرة ليس أكثر من عدة أسطر في "موسوعة حلب المقارنة" المتخصصة بالحالة اللغوية والثقافية والاجتماعية للمدينة ولذلك وضعت خطة لمقابلة العشرات من بنات العشرة الشهيرات أو من كن من معارفي وقربائي.

كانت النتيجة مذلة فقد انفتحت على عالم عجيب من العلاقات النسائية عماده الأساسي الصداقة وحب المعاشرة والموسيقى والغناء والرقص والحب والغيرة والخيانة واللامسة وفي كثير من الأحيان السحاق.

لقد أرادت المرأة الحلبية أن تتمتع بحياتها وتشبعها عاطفياً في غياب زوجها لأكثر من أربع عشرة ساعة يومياً دون أن تخونه مع أي رجل، والمهم أكثر أن الأزواج، في معظم الأحيان، كانوا على علم بمعامرات زوجاتهم العاطفية دون أن يعترضوا مادام الأمر لا يشكل تهديداً للشرف ولا يقلل من تقبلها لمداعباتهم في السرير ليلاً بعد عودتهم من أعمالهم.

كل مأتمناه الآن ألا تكون كلماتي هذه عن مدینتي حلب شكلاً من أشكال النعي لمدينة ميّة.

Nihad Sirees